إضاءات نقدية (فصلية محكّمة)
السنة الخامسة – العدد التاسع عشر – خريف ١٣٩٤ش / أيلول ٢٠١٥م
صص ١٠٩ ـ ٨٥

أدب الريف فى رواية "الأرض" للشرقاوى و"كليدر" لدولت آبادى

رضا ناظميان (الكاتب المسؤول) *
پيام كريمى**

الملخّص

كان الريف من أهمّ الموضوعات التى ردّدها الكتّاب فى آثارهم بما فيه من صفاء، ونقاء، وطبيعة لم تفسدها المدينة المصطنعة وبما فيه من ظلم، وعسف، وحرمان، وتمييز يشوّه وجوهه ويكدّر صفائه. فقلّما نجد شاعرا أو كاتبا لم يكتب عن الريف وما يعانيه القرويون من ظلم، وتعسف وحرمان أو ما يزين الريف من طبيعة ساحرة وطيور مغرّدة وأشجار باسقة خاصة الرومانسيين الذين قد تغنّوا طويلا بالريف ومباهجه، والواقعيين الذين شمّروا عن السواعد وقاموا بالعمل الجادّ والدؤوب من أجل التعبير عن مشاكل الريف والصعوبات التى يواجهها الفلّاحون الذين يقضون معظم وقتهم فى المزارع مقابل أجر زهيد لا يسدّ جوعهم ولا يملأ بطنهم. فمن منطلق ذلك، تعرّضنا فى هذه المقالة لمدى أهمية أدب الريف وصداه فى الأدبين الإيرانى والمصرى، كما قمنا بمقارنة الروايتين اللتين قد تعدّان قمة هذا الأدب فى كلا البلدين. فقد درسنا أدب الريف فى مصر وإيران وأجرينا مقارنة بين روايتى "الأرض" للشرقاوى و"كليدر" لدولت آبادى وتحدّثنا عما يميزهما وعن أوجه التشابه والتفاوت فى الروايتين. وفى هذا المجال وعلى مستوى المغزى والمضمون تطرقنا إلى هذه المحاور: قداسة الأرض، والدعوة إلى الثورة وسيطرة الواقع؛ وعلى مستوى التقنية والشكل، تناولنا هذه الركائز: اللغة، والشخصيات، ومسرح الأحداث، والصراع.

الكلمات الدليلية: أدب الريف، دولت آبادى، كليدر، الشرقاوى، الأرض.

---

*. أستاذ مشارك فى اللغة العربية وآدابها بجامعة العلامة الطباطبائى، طهران، إيران.
**. طالب مرحلة الدكتوراه فى اللغة العربية وآدابها بجامعة العلامة الطباطبائى، طهران، إيران.
Kpayam63@gmail.com

التنقيح والمراجعة اللغوية: د. مهدى ناصرى
تاريخ الوصول: ١٣٩٣/٦/٢٠ش تاريخ القبول: ١٣٩٤/٢/٢٥ش

المقدمة

تعتبر الرواية إحدى الأجناس الأدبية التى تكون صدى عن ظروف المجتمع أو الأفكار والملاحظات التى تكمن فى ذهن المولّف. فبعبارة أخرى، هى فنّ أدبى تستخدم كوسيلة للتعبير عن واقع الحياة وقضايا المجتمع وعن مشاكل الإنسان وأزماته وكل ما يعرقل مسيرته فى الحياة وكما أنّها ذات عناصر مختلفة مثل الشخصية، والزمان، والمكان، والسرد، والحوار، والحدث، والحبكة، والأسلوب والهدف، وتحتوى على العديد من الشخصيات، لكل منها بواعثها وانفعالاتها الخاصة كما يقول طه وادى: «الرواية من أكثر الفنون الأدبية قدرة على التعبير عن أزمات الإنسان وقضايا الواقع من خلال حساسية خاصّة تجيد طرح الأسئلة وإثارة الانتباه.» (وادى، ١٩٩٦م: ٣) إنّ أدب الريف من الموضوعات الهامّة فى آداب جميع الأمم على اختلاف مواقعها وفى كل العصور لأنّه يحكى لغة الطبيعة والفطرة «لأنّ الريف هو الأقرب إلى الطبيعة والفطرة ومن ثم تكون الطبائع الإنسانية فيه بعيدة عن زيف المدينة.» (عبدالله، ١٩٨٩م: ١١٧) من جانب آخر، إن الرابطة بين الفن القصصى والواقعية قوية جدا، وأكثر النتاج الروايى والقصصى بشكل عام وربما أعمقه تأثيرا فى وجدان القارئ (العربى والفارسى) تشكّل فى ضوء الوعى بالواقعية. وبشكل آخر يمكن القول «أن الفن الروائى قد اكتسب صورته الناضجة فى عصر الواقعية.» (المصدر نفسه: ٥٣) إن الروايات الواقعية عن الريف، ودون المبالغة، هى الأعمال الأكثر نضجا من الناحية الفنية وهى الأكثر عددا من الناحية الكمية. من الأعمال الروائية فى الأدبين الإيرانى والعربى التى تدخل طور الأدب الواقعى هى "الأرض" للكاتب المصرى عبدالرحمن الشرقاوى و"كليدر" للكاتب الإيرانى محمود دولت آبادى. وهنا قد قمنا بالمقارنة بين الروايتين على أساس مبدأ العدالة الاجتماعية ونظام العمل على الأرض والأواصر الوثيقة بين أبناء القرية الواحدة، كما أشرنا إلى الجوانب الفنية لهاتين الروايتين.

أسئلة البحث

١- فى العصر الذى نرى ونسمع ملامح الحداثة وصخب وضوضاء الحياة المكانيكية

لماذا يختار الروائيُّ الريفَ كبيئة ومادة لتقديم آرائه ومعتقداته؟ هل اختار الكاتبان الشرقاوى ودولت آبادى الريفَ كمسرح لأحداث روايتهما لأنهما عاشا تجربة مماثلة لكفاح البسطاء فى قريتهما أو الاعتقاد بالحرية والعدالة ساقتهما إلى الحديث فى هذا المجال؟

٢- ما هى الرسالة التى يريد أن يعلنها الكاتب الذى يتحدّث عن الريف ومظاهره؟ هل تعدّ الواقعية الاشتراكية، السببَ الوحيد فى كتابة رواية الريف أم هناك أسباب أخرى؟

٣- هل يضحّى دولت آبادى فى "كليدر" والشرقاوى فى "الأرض" بالموضوع من أجل فكرة يؤمنان بها ويقرّانها أم نجدهما ملتزمين بالذات والموضوع سويا؟ بعبارة أخرى هل تعدّ كلتا الروايتين وسيلة للتعبير عن مقاصد أيدولوجية ونوايا حزبية؟

٤- فما هى طبيعة الموضوعات التى يرصدها الروائى المصرى والإيرانى فى الريف؟ هل تعدّ "الأرض" وملكيتها الفكرة الرئيسية للكاتبين أم هناك مواضيع أخرى تشغل بالهما؟

فرضيات البحث

١- بادئ ذى بدء يبدو أنّ كلتا الروايتين تعدّان وسيلة للتعبير عن مقاصد أيدولوجية ونوايا حزبية للكاتبين؛ ولكن بعد قراءة عميقة وإمعان النظر فيهما نجد وندرک أنّ رواية "كليدر" تجتاز حدود الأيدولوجية ودعايات حزبية وتدعو إلى ما هو أفضل وأعلى من كل شيء وهو الحبّ، غير أنّ رواية "كليدر" الأرض"كليدر" تدخل فى إطار الأيدولوجية وتدعو إلى الاشتراكية.

٢- لاتختّص رواية الريف بالواقعية الاشتراكية بل هناک بعض الأعمال والآثار تتجاوز عن هذه الروية الأيدولوجية البحتة وتقوم بالبحث والحديث عن مشاكل اجتماعية وثقافية يعانى منها المجتمع الريفى وتقدّم حلولا مناسبة وملائمة وهذا ما نشاهده عمليا فى "كليدر" حيث إننا فى بعض الفقرات والأسطر نشاهد أنّ الكاتب يتخلّى عن سرد الرواية مقدّما آرائه الفلسفية، والسايكولوجية والاجتماعية.

٣- إنّ معظم كُتّاب أدب الريف خاصة الشرقاوى ودولت آبادى عاشوا تجربة كفاح البسطاء فى قريتهم بإحساس متزايد بكراهية الظلم، وحبّ العدل وضرورة الكفاح فى سبيل الحرية، وبعبارة أخرى إنّ الظروف السائدة على البيئة كانت باعثة ساهمت فى خلق هذه الآثار وأنّ الكتاب ذاقوا وأحسّوا ما كتبوه.

٤- إنّ الأرض تلعب دورا أساسيا فى كلتا الروايتين وأنّ دولت آبادى، والشرقاوى وسائر الكتّاب فى أدب الريف ينظرون إلى الأرض نظرة قداسة وإجلال، لأنّ الحياة فى الريف تقوم على أساس الأرض والعمل فيها والصراع من أجلها.

سوابق الدراسة

إنّ أهمّ كتاب قام بدراسة الأدب الريفى هو "الريف فى الرواية العربية" للدكتور "محمد حسن عبدالله"، أستاذ النقد الأدبى بجامعة كويت؛ أمّا بالنسبة إلى رواية "الأرض" يمكننا القول إنّ الدراسات الموجودة عن هذه الرواية محدودة، وما اشتهر منها فى الكتب والمجلات المختصة لم يتجاوز فى كثير من الأحيان دراسَة المضامين، أو المقارنة مع أعمال أخرى. ومن أشهرها كتاب "الأرض والصدى" لمحمد البدوى، دار المعارف تونس ١٩٩٧م؛ أمّا هذا لايصدق على "كليدر" لدولت آبادى لأنّ هناك دراسات عميقة ومحورية تلقى الضوء على بعض جوانب هذه الرواية الشهيرة ومن جملتها: ١- الوصف فى أعمال دولت آبادى خاصة "كليدر"، لزهراء زارع فى فرع الأدب الفارسى بجامعة أصفهان ١٣٨٦ش. ٢- شجرة ذات ألف جذر، دراسة أعمال الكاتب محمود دولت آبادى من البداية وحتى "كليدر"، لكتايون شهبرراد، طهران ١٣٨٢ش. ٣- دراسة بناء ألفاظ اللهجة السبزوارية فى رواية "كليدر"، لبروين صدايى، جامعة طهران ١٣٦٥ش.

لقد شملت هذه الأبحاث والدراساتُ، العديدَ من الملاحظات والاستنتاجات النقدية الصحيحة ولكن ما يميز هذه الدراسة غير المسبوقة ـ حسب معرفتنا ـ عن المقارنة بين هاتين الرائعتين فى الأدب الإيرانى والعربى، هو التركيز على الواقعية الاشتراكية والأرض كمسرح للروايتين وأيضا النوايا الحزبية المحتملة عند الكاتبين. والمنهج الذى نوظّفه فى هذه المقالة هو المنهج الوصفى التحليلى.

أدب الريف فى مصر

نلاحظ بواكيرَ الأدب الريفى فى مصر عند رائد هذا الاتجاه الدكتور "محمد حسين هيكل" الذى كتب أولّ رواية ريفية عربية (وادى، ١٩٩٦م: ٩١) والتى تسمّى "زينب". غنىٌّ عن البيان أنّ هيكل، لعب دورا أساسيا فى الاتجاه الريفى للرواية العربية عامّة وللرواية المصرية خاصّة حيث تنقسم الرواية الريفية فى مصر إلى قبل محمد حسين هيكل وبعده وهذا يبين مكانة ومقدرة هذا الكاتب المصرى.

هناك كثير من الكتاب المصريين تحدّثوا عن الريف ومظاهره، فنظرا لكثرة عددهم نشير فقط إلى أسمائهم دون الدخول فى صلب آثارهم والحديث عنها. فمن الكتّاب الذين أولوا الريف والحياة فيه اهتمامهم، يمكننا الإشارة إلى محمد حسين هيكل فى "زينب"، وطه حسين فى "دعاء الكروان"، ومحمد عبدالحليم عبدالله فى "لقيطة"، و"بعد الغروب" و"شجرة اللبلاب"، وثروت دسوقى أباظه فى" هارب من الأيام" و"قصر على النيل"، وتوفيق الحكيم فى "يوميات نائب فى الأرياف"، ونجيب محفوظ فى "ميرامار"، وعبدالرحمن الشرقاوى فى رواياته الثلاث "الأرض"، و"قلوب خالية" و"الفلاح".

رغم أنّ فنّ الرواية قد نشأ فى حضن المدينة والمطبعة الأوروبية فإنّه نشأ فى مصر فى حضن الريف أو القرية ثمّ خرج إلى المدينة «فالفنّ الروائى ابتدع ليعبّر عن المدينة وليس الريف أو القرية وارتباط ازدهاره بنشأة المدن الكبيرة وانتشار التعليم لأنّ الرواية فنّ يقرأ كما ارتبط بحصول المرأة على قدر من الحرّية الاجتماعية وبخاصّة حق العمل وحق الحب.» (عبدالله، ١٩٨٩م: ٧)

وتصوّر الرواية الريفية المصرية الفلّاح بريئا فقيرا مستغَلّا، والإقطاعىَّ ظالما مستغِلّا ولعلّ تصوير جرائم الإقطاع ومعركة الفلاحين لنيل حقوقهم من الإقطاعيين هو الموضوع الأوّل فى الرواية المصرية ونظيرتها الإيرانية. إنّ الفلاح فى الريف يقضى معظم أوقاته فى الأرض لكى يأكل من ثمرة جهده وكدّ جبينه ولكن هيهات أن يتحقّق هدفه ويرى ثمرة عمله. لقد تثمر الأرض أشهى ثمرات ولكن هذه الثمرات لا تدخل فى بيوت الفلاحين بل ترسل إلى الأسواق لكى يستفيد من بيعها الملّاك ويتلذّذ من تذوّقها أبناء المدينة، أمّا الفلاحون وبنوهم تكون ثمرة جهدهم فى الأرض حسرة أليمة تذيب قلوبهم وهذا ما

يشــوّه صورة الريف ويحوّلها إلى مســتنقع يفوح منه رائحة قذرة كريهة تؤذى كل ما يمرّ بها. هذا ولكن كلّ هذه المظالم التى يســتغلّها هولاء الظالمون لايوجب استســلام الفلاح ولا تخمد إرادته وســعيه فى ســبيل الحريــة والعدالة وهذا ما نــراه فى رواية "الأرض" للشرقاوى والتى سنتحدّث عنه فيما بعد.

إنّ كلّ هذه المظاهر السلبية هى التى تسوق الكتاب وتدفع الشعراء إلى الكتابة عن الرّيف وعما يعانيه الريفيون وهذا لا ينحصر على مصر بل يشمل كل بلدان العالم الثالث الذى يكون نظام الزراعة فيها إقطاعيا ولذلک نرى الكتاب والشــعراء على الرغم من إعجابهم بجمال الريف وخلابة الطبيعة فيه يتألّمون من شــقاء، وبؤس وعداء يعانى منها الريفيون داعين برفع مستوى الفلاح الصحىّ والثقافىّ بالدراسة والتعليم.

أدب الريف فى إيران

يعــود ظهور الروايات التى تتحدّث عن الريف وعالمه فى الرواية المعاصرة الإيرانية إلى العقد الثالث من القرن الثالث عشــر الهجرى الشمســى، أمّا هذا النوع من الرواية بلــغ ذروتــه فى العقد الرابع والخامــس حيث اهتمّ الكثير مــن الروائيين بالحديث عن الريــف وخلقوا أعمالا رائعة وتعتبر رواية "دختر رعيت" (١٣٢٧ش) لـ"محمود اعتماد زاده" (بــه آذين) والتى تتحدث عن قرى منطقة جيلان أهمّ رواية كتبت فى العقد الثالث كمــا كتب "بزرک علوى" ســنة ١٣٢٦ش القصة القصيرة "گيله مرد" وأشــار فيها إلى نضــال ومقاومــة الفلاحين فى "جيلان" ببيان قوى وأوصــاف ناطقة من الطبيعة الخلابة والخضــراء لشــمال إيران كما يمكننا تســمية القصة القصيرة "چرا دريا طوفانى شــد" (١٣٢٨ش) للكاتب الشهير الإيرانى "صادق چوبک" قصة ريفية لأنّ الكاتب يشير فيها إلى أحداث تقع فى البحر وبهذا يصل إلى تجاوب وانسجام بين البيئة المحلية وما يجول فى داخل الشخصيات مقدّما ديناميكية وحيوية الطبيعة الريفية فى جنوب إيران. (انظر: بشيرى، ١٣٩٠ ش: ١٦٥-١٧٨)

أما مــن أهمّ الأعمال الروائية التى تتحدّث عن الريف وعالمه فى الأدب الفارســى فيمكننا الإشــارة إلى "شــريف جان شــريف جان" لمؤلفه تقى مدرسى، و"نفرين زمين"

لجلال آل احمد، و"دهكده پرملال" لأمين فقيرى، و"عزاداران بَيل" لغلامحسين ساعدى، و"از اين ولايت" و"سالهاى ابرى" لعلى أشرف درويشيان، و"كليدر" لمحمود دولت آبادى.

كليدر والأرض

واخترنا رواية "كليدر" نموذجا من صدى الريف فى الأدب الفارسى لأنّه لم نتّخذ جانب التطرّف إذا قلنا إنّ هذه الرواية من أكبر وأفضل أعمال روائية لا فى إيران فحسب بل فى العالم إذ إنّ كاتبها لا يطرح رؤية واحدة بل يعبّر فيها عن وجهات نظر مختلفة كأنّ الكاتب قرأ وأدرك هذه الجملة من الفيلسوف الألمانى الكبير فردريک نيتشه: «كيف نستفيد ونتمتّع من كتاب لا يرشدنا إلى كتب أخرى» (يالوم، ١٣٩١ش: ١٣٤) فقارئ "كليدر" حينما يقرأ هذه الرواية فكأنّه قرأ عدة روايات وذلک بسبب توسّع الأفكار فيها.

يعتبر محمود دولت آبادى أهمّ كاتب إيرانى تحدّث عن الريف وعالمه وأكثرهم تأثيرا فهو يصوّر فى أعماله هواجس ومشاكل أهل الريف ببيان قوى وساحر يدلّ على عبقريته، فهذا الكاتب الشهير الإيرانى خلّد اِسمه فى تاريخ الأدب الإيرانى برائعته الأدبية "كليدر" والتى يعتبرها البعض أفضل رواية كتبت فى إيران.

وأمّا عن سبب اختيار رواية "الأرض" نستطيع القول بأن للأرض أصداء واسعة ترنّ فى أرجاء الوجود فإنّها دعوة للإنسان الفعّال إلى أن يحبّها فيعشقها فيلتصق بها ويذوب فيها عشقا وفعلا، فإنّ للأرض منطقها حيث لن تخضع إلّا لمن افتداها بعرقه، وجهده، وحياته، وقلبه وهذا ما ينطبق على "كليدر" تمام الانطباق ويصدق كل الصدق. نعم إنّ لـ"كليدر" و"الأرض" صوتا وصدى يسمعهما الإنسان ولكنه ربما لا يدرک ماوراءهما بسبب رموز تكمن فيهما. فنأمل عبر دراستنا هذه أن نعطى روايتى "الأرض" و"كليدر"، حقّهما حيث نرسم ملامح هاتين الروايتين عبر الخوض فى غورهما.

وبما أنّ عبدالرحمان الشرقاوى، يتقدم على دولت آبادى فى الميلاد والوفاة، نبدأ حديثنا معه ثم نواصل كلامنا بالغور فى عالم دولت آبادى خاصّة رائعته الأدبية الشهيرة

"كليدر".

عبدالرحمن الشرقاوى صاحب رواية "الأرض"

ولد الشـرقاوى فى ١٠ نوفمبر عام ١٩٢٠م بقريـة الدلاتون بمحافظة المنوفية وتوفّى فى اليوم والشـهر نفسـه عام ١٩٨٧م. بدأ تعليمه فى كتاب القرية ثم انتقل إلى المدارس الحكومية حتى تخرّج فى كلية الحقوق بجامعة فؤاد الأول عام ١٩٤٣م. بدأ حياته العملية بالمحامـاة لكنـه هجرها لأنـه أراد أن يصبح كاتبا فعمل بالصحافـة فى مجلة الطليعة فى البداية ثم مجلة الفجر وعمل بعد ثورة ٢٣ يوليو فى صحيفة الشعب ثم صحيفة الجمهورية ثم شـغل منصب رئيس تحرير صحيفة "روز اليوسف" وعمل بعدها فى جريدة "الأهرام" كما تولّى عدداً من المناصب الأخرى منها سكرتير منظّمة التضامن الآسيوى الأفريقى وأمانة المجلس الأعلى للفنون والآداب. (خفاجى، ١٩٨٩م: ١٢٩)

تلعب البيئة دورا أساسيا فى تكوين شخصية الأديب وهذا ما نراه عمليا فى عبدالرحمان الشرقاوى. عاش الشرقاوى فى بيئة مضطربة تعانى من الفقر، والاستعمار والظلم حيث ذاق الثلاثى المرعب المتمثّل فى الفقر، والجهل والمرض كما واجه الاستعمار الإنجليزى والهتافـات التى يردّدها الفلاحـون فى المظاهرات وكل هذا أثّـر فى الطفل الصغير كل التأثـير وتجلّى فى آثاره الكثيرة فيما بعد خاصة فى رواية "الأرض" والتى هى موضوع هذه الدراسة.

لم يكن الشرقاوى بمعزل عن مجريات الواقع بل على العكس نراه أول كاتب فى مصر تخلّص نفسه من الفضاء الرومانسى ومال إلى الروايات الواقعية كاتبا رواية "الأرض" وهـى أول روايـة واقعية مكتوبة عن الريف. إنّ هذا الكاتب المصرى «كشـعراءِ جيله تأثّر بالشيوعيّة وانتمائه إلى اليسار حيث كان عضواً فى جماعة أنصار الإسلام اليساريّة آنذاك.» (كمال،١٩٩٠م: ٤٠)

كان عبد الرّحمن الشّرقاوى واحداً من الكتاب العرب المسلمين الذين فهموا الإسلام على حقيقته. فقد أدرك أنّ جوهر الإسلام هو مساندة الفقراء والمستضعفين فى الأرض كما يقول: «لوكان كارل ماركس قرأ القرآن ودرس السّـنة المحمّديّة لما احتاج أن يؤلّف

رأس المال.» (المصدر نفسه: ١١٦)

ظلّ الشـرقاوى حتى النهاية اشـتراكى النزعة رغم اسـتنارته الإسـلامية ولكن الاشتراكية التى تؤمن بالإسلام وتقيم فرائض الدين من الصلاة، والصوم والزكاة. يقول ابنه الدكتور شـريف الشّـرقاوى حـول أيامه الأخيرة: «كان فى الأيـام الأخيرة دائم الصّلاة والبكاء عند سماعه للقرآن.» (المصدر نفسه: ١٤٠)

كان عبد الرّحمن الشّرقاوى أديباً، وشاعراً، وصحفيّاً، ومسرحيّاً وسينمائيّاً فهو طرق لضالّته المنشودة أبوابا كثيرة من الشعر، والمسرح، والرواية، والقصة القصيرة والمجالات الدينيـة وترك آثارا خالدة ترجمت إلى لغـات مختلفة وفيما يلى بعض آثار هذا المفكّر والكاتـب المصرى: أمّا الرواية فله أربع روايات وهى: "الأرض" ١٩٥٤م، و"شـوارع الخليفة" ١٩٥٧م، و"قلوب خالية" ١٩٥٧م و"الفّلاح" ١٩٨٠م.

أمّا مسـرحياته فهى: "مأسـاة الجميلة" ١٩٦٢م، و"الفتى مهـران" ١٩٦٦م، و"تمثال الحرّية "١٩٦٧م، و"وطنى عكا" ١٩٦٩م، و"الحسـين ثائراً والحسـين شهيدًا" ١٩٦٩م، و"النّسر الأحمر "١٩٧٦م، و"أحمد عرابى زعيم الفّلاحين" ١٩٨٥م.

وأمّا فى مجال الشعر فكان للشرقاوى ديوانان فى الشعر، الأول يحمل عنوان قصيدته الشـهيرة "من أب مصرى إلى الرئيس ترومان" والثانى يضمّ مسرحيته من فصل واحد، ومجموعة قصائد "تمثال الحرّية" و"قصائد منسيّة".

ملخّص رواية الأرض

تبـدأ الرواية بقصـة لعبة الفرح والتى دبّرتها فتاة تسـمّى "وصيفة" مع بنات وأولاد القريـة واقترحت فيها "وصيفة" أن تكون هى العروسـة فى هذه اللعبة ثم اختارت فتاة لدور الداية أمّا العريس فاختارت الراوى، غير أنّ هذه اللعبة لم تتمّ لأنّ الشيخ الشناوى وهو الرجل الدينى فى القرية دخل فجاة وشتم العروس والعريس وطردهما من المصلّى ثم تدخل الرواية فى مسار آخر وتعرض قصة الفلاحين يناضلون الإقطاع والحكومة من أجل الأرض والماء. اشتعل فتيل الأزمة بين الفلاحين والحكومة بسبب تقصير عدد أيام الرىّ. إنّ رجال الهندسـة حذّروا الريفيين بأنّ عدد أيام الرىّ أصبحت خمسة أيام بدلا

من عشـرة أيام وهذا ما لا يقبله الريفيون ويتورّطون بسـبب ذلک فی اشتباکات عنيفة مع رجال الحکومة وعبدالهادی بطل القرية أوّل من اشتهر لسانه متحدّيا ومعارضا هذه المبادرةَ من الحکومة.

دخلـت القرية فی الأزمة بعد هذا القرار الـذی أصدرته الحکومة وتضاربت الآراء حـول إيجاد حلّ ملائم، واقترح محمد أفندی وهـو المدرّس الإلزامی أن يکتب عريضة إلـی وزير الأشـغال وقال إنّ محمود بـک باعتباره نائب الحکومة يسـتطيع أن يحملها اليه فهو من معارفه وکتب محمد أفندی عريضة وإن اعترض محمد أبو سـويلم باعتباره رئيس الخفراء السابق، ثم ذهب به إلی العمدة وهو أستاذ الخداع لکی يقدّمه لمحمود بک ولکن حينما رأی محمود بک العريضة، جنّ جنونه وشـتم العمدة وأهل القرية، وقال إنّ العريضة شديدة اللهجة وهو يکتب بنفسه عريضة أخری. کتب محمود بک عريضة أخری بنفسه ولکن لم يشِر فيها إلی تعديل نظام الریّ الزراعی بل جاء فيها موافقة أهل القرية علی الطريق الزراعیّ لأنّ الباشا بدأ يتمّم بناء قصره الکبير ويحتاج إلی دعم الحکومة، فإنّه يريد أن يشقّ الطريق الزراعی من أراضی الفلاحين الذين يرفضون هذه الفکرة.

وأمـر العمدة الخفراء أن يذهبوا بالورقة التی عـاد بها من عند محمود بک إلی أهل القريـة لکی يجمعوا أصابعهـم وأختامهم عليها ووضع جميع أهـل القرية أختامهم علی العريضة الجديدة إلّا "محمد أبوسويلم" و"محمد أفندی" و"دياب"، وبهذا دخلت القرية فی أزمة أخری وهی الطريق الزراعیّ وسـيطرت حالة من الحزن والأسی علی القرية بعد أن عرفوا أنّ العمدة اسـتغلّ سـذاجتهم وخدعهم مرة أخری فهم أجمعوا علی المقاومة والنضال حتی الرمق الأخير. ورغم إنذار الحکومة وتهديد محمود بک فقد کان الفلاحون قطعوا الجسر ورووا أرضهم ولم تقف الحکومة مکتوفة الأيدی أمامهم بل اعتقلت کثيرا من رجال القرية من بينهم محمد أبو سـويلم، وعبدالهادی ودياب بسـبب قطع الجسـر فسيطرت مسحة من الحزن والألم والکآبة علی القرية.

ولکن تم الإفراج عن المعتقلين وعادوا إلی القرية إلّا أنّ رجال القرية لم يستسـلموا وقرّروا علی مواصلة النضال فهم تسلّلوا إلی الترعة وقذفوا الحديد فی الماء، وبعد هذا أرسـلت الحکومة رجال الهجانة إلی القرية وهـم هبطوا بالکرابيج وانهالوا ضربا علی

الفلاحين وأمروهم بالرجوع إلى الدور وأخذ رجال الزراعة يقومون بحفر الحقل فى أراضى القرية خاصّة أرض محمد أبو سويلم، وحينما اعترض محمد أبو سويلم، هوى رئيس الهجانة على وجهه بكفّ وأمر العساكر أن يحبسوه هو ومن معه من الرجال من عبدالهادى، ودياب وعلوانى فى غرفة التليفون بدوار العمدة وتنتهى الرواية بعودة الراوى إلى مصر لتكميل دراساته الثانوية ونحن لا ندرى هل تمّ الإفراج عن المعتقلين أم لا؟ وهل انتهى مشروع الطريق الزراعىّ واستسلم أهل القرية أمام قوّات الحكومة أم لم ينته ولم يستسلم الناس؟

تعرض رواية "الأرض" قصة فلاحى إحدى القرى المصرية يناضلون الإقطاع والحكومة من أجل الأرض والماء وتحكى لنا الرواية عهد صدقى فى مصر وما يعانيه النّاس من القتل، والفقر والنفى بسبب إلغاء الدستور على يد إسماعيل صدقى «وفى تلك الأيام كانت القاهرة لا تهدأ أبدا وكنت أعرف من أحاديث إخوتى الكبار ومن الجرائد التى يحملونها أنّ رجلا اسمه صدقى يحكم مصر بالحديد والنّار بعد أن ألغى الدستور لحساب الإنجليز وكنت أراه يطلق فى القاهرة جنود الإنجليز حمر الوجوه ليحملوا له سلطانه على رقاب الناس.» (الشرقاوى، ١٩٧٠م: ١٤) كما نرى عبدالهادى بطل القرية يصبّ جام غضبه على حزب الشعب الذى يدافع عنه الباشا وأعوانه فى القرية «يا جدع دى الحكومة حكومتهم والكلمة كلمتهم دا الباشا فى حزب الشعب اللى ماسك البرّ وحارقة بولعة. الله!! خبر إيه يا علوانى مش تأخذ بالك". (المصدر نفسه: ٥٢)

تتحدّث رواية "الأرض" عن التمييز الطبقى الذى تعانى منه القرى المصرية مثل بقية قرى الشرق الأوسط وهذا ما تصوّره "وصيفة" فى الرواية قائلة: «فعلوانى وشيخ البلد الذى يشغله وحتى العمدة نفسه لا يساوون فى البندر شيئا وقد حدّثها زوج أختها أنّه رأى المأمور الذى يهزّ الدنيا يرتجف أمام الحكمدار ورأى الحكمدار يرتجف أمام المدير ورأى المدير يقبّل يد وزير كان فى زيارة مدرسة الزراعة بعاصمة الإقليم.» (المصدر نفسه: ٣٧)

«لقد أثارت "الأرض" إبّان صدورها ضجيجا لصراحة تعبيرها عن المجتمع الجديد المتنامى وإدانتها لمصادر الإحباط والفساد فى الماضى والحاضر وساعدت على تكوين

تيار جديد فى فنّ الرواية العربية هو الواقعى الاشتراكى.» (عبدالله، ١٩٨٩م: ٩٥)

إنّ الشـرقاوى فى "الأرض" يعيش صراعا مؤلما بين ما يشـاهده من قسوة الحياة فى الريف وما يرى أن يبشّر به من ثقة فى المستقبل" لكن مع هذا الجوّ المفجع والمؤسف، نرى بـوارق الأمل، لأنّ التقـارب يحدث بين تلميذ "طلعت" وهو من الغرابوة وصبى راغب فى تعلّم القراءة من أهل القرية وهذا ما نراه فى "شجرة البؤس" لطه حسين و"ميرامار" لنجيب محفوظ و"الأرض" للشرقاوى. (اُنظر: الشطى، ١٩٧٤م: ٣٥٨-٣٦٣)

محمود دولت آبادى

ولد محمود دولت آبادى سنة ١٩٤٠م فى مدينة سبزوار لمحافظة خراسان حيث أنهى دراسـته الإعدادية فيها. (أمير حسين چهلتن، فريدون فرياد، ١٣٦٨ش: ١٨٠) ثم ترك قريته متّجها إلى مشهد وبعدها إلى طهران حيث قضى معظم عمره فى العاصمة الإيرانية مجرِّبا فيها مهنا مختلفة. ثمّ تعرّف على شخصيات أدبية شهيرة وشارك فى حلقاتهم وذلك بسبب شغفه الكثير بالعلم والتعليم وقد لا نتّخذ جانب التطرّف إذا قلنا «إنّ مكانة دولت آبادى فى الأدب المعاصر الإيرانى تشـبه كثيرا بالمكانة التى حظى بها الشـاعر الكبير الإيرانى أبوالقاسم فردوسى فى الأدب القديم مكانة متميزة بلامنازع لا يشقّ غبارها.» (بشيرى، ١٣٨٦ش: ٢٣٥)

إن الراوى الإيرانى الكبير، دولت آبادى قد ركّز حياته على تأليف القصة والرواية، وخلّـف آثاراً خالـدة فى هذا المجال تكون حرية بأن تحصل علـى جائزة نوبل للأدب أو على الأقل ترشـيحها لهذه الجائزة العالمية خاصّة روايـة "كليدر" والتى بلغت ذروة الجمـال والإبـداع. ومن الجدير ذكـره أن أغلب آثاره مترجَم إلى لغات مختلفة نشـير فيمـا يلى إلى بعض منها: القصة القصيرة: "انتهاء الليل"، و"أدبار"، و"عند أسـفل منارة الولى شعيب"، و"تقيد"، و"هجرة سليمان"، و"الظلال التعبى"، و"الصحروای"، و"الرجل". والقصص الطويلة تقريبا: "السفر"، و"دعوى بابا سبحان"، وراعى البقر"، و"مع شبيرو"، و"من الأزقة الملتفّة"، و"عقيل عقيل". والروايات مثل: "مكان سلوج الخالى"، و"كليدر"، و"الوقت المنقضى وكبار السن".

ملخّص عن الرواية

"كليــدر" هو قصة رجل باســم "گل محمد" وهو من العشــائر الكرديــة التى أبعدها "نادرشــاه" من غرب إيران إلى شمال شرقى خراسان بسبب تمرّدها، وضغطت على هذا الرجل ظروف غــير مؤاتية مثل القحط، وتلف الحيوانات والإعدام حيث لا يمكنه دفع الضريبــة إلى مأمورى جابى الضرائب فى الوقت الذى يصــرّ الماموران على دفع "گل محمــد" الضريبة أو يرافقهم إلــى المدينة لتوضيح عدم تمكّنه من دفــع الضرائب، ولكن رفض "گل محمد" أن يرافقهما إلى مقرّ الشــرطة إذ كان قد شــارک من قبل فى دعوى "جارگوشلى" والتى أسفر عن قتل رجلين ولذلک لم يكن له بدّ إلّا قتل الما مورين وفعل هذا بمساعدة عمّه "خان عمو" حيث يفاجئان الما مورين بالهجوم ويقتلونهما فصار "گل محمد" بطل "كليدر" متمرّدا وطاغيا على الحكومة. إنّ رجال الأمن يعتقلون "گل محمد" أخيرا ويلقون به فى سجن "سبزوار" ولكنّه ينجح أن يهرب من السجن بمساعدة "ستار" وهو من أعضاء حزب"توده". إنّ "گل محمد" بفراره من الســجن وقتله الما مورَين وابن خالته "على أكبر حاج بسند" الذى باح بسرّ قتل المأمورين فى مقرّ الشرطة، أعلن تمرّده علــى الدولة علنيا وهذا ما يعرفه "گل محمد" وكلّ أعوانــه وأقاربه فلذلک قام بتجنيد الناس لأنــه يعرف جيدا أنّه لا يمكنه الصمود والمقاومة أمام الحكومة. كانت ردود فعل النــاس إيجابية معه وذلک بســبب القانون الخاصّ الذى ينفّــذه بين الناس والّذى كان يقــوم على أســاس العدل والإنصاف حيث يتّجه إليه كثير مــن الناس من المنطقة حتى يحلّ بطل "كليدر" مشــكلتهم ويخلّصهم مما يعانون منه، فهــو أصبح عيارا حقيقيا يذكره الناس فى مجالسهم ومحافلهم بالاحترام والفخر كأنّه نبيّ بعث لكى ينقذ الناس من الظلم والإخفاق. فحدثت معارک كثيرة بينه وبين قوّات الحكومة وكانت نسبة الانتصار لـ"گل محمد" أكثر بكثير من الحكومة وهذا أدّى إلى انتشار شهرته وتناوله الناس بالإشاعات مدحا وقدحا فأصبح "گل محمد" متمردّا وقامت الحكومة بتعيين جائزة لمن يقتله ويقطع رأسه.

حظيــت "گل محمــد" بمكانة رفيعة بين الناس وضاع صيتــه يوما بعد يوم وهذا ما لم تقبله الحكومة حيث أرسلت جيشا حاشدا بقيادة "سيد شرضا" و"جهن خان" للإطاحة

به ورهطه فاقترح أقارب "گل محمد" حشد الناس وتسليحهم إلّا أنّ "گل محمد" رفض طلبهما وقال إنّه لا يريد تهييج الفلاحين وتسليحهم لمنع الهزيمة وهو يعرف جيدا أنّ نهايته قريب وبعد أيام يقتل ولذلک يصرف أفراده المقاتلين مثل"ستار" و"خان عمو" وأخويه "بيگ محمد" و"خان محمد" عن المعركة النهائية ولم ينصرف إلّا أخوه الأكبر "خان محمد" وذلک لأنّ "گل محمد" قال له إنّ حقده شديد ويمكنه الثأر من الأعداء، فنشبت الحرب بين الطرفين وأشعل كلاهما النيران فلم يلبث حتى قتل "بيگ محمد" ثم"خان عمو"، و"ستار" و"زيور"، زوجة "گل محمد"، إلّا أنّ "گل محمد" جرح وأغمى عليه وقطع رأسه وهكذا تنتهى رواية "كليدر" بنهاية مأساوية.

يستلزم علينا القول بأنّ رواية "كليدر" تعدّ واحدة من أفضل الروايات الثلاث فى تاريخ الأدب الإيرانى إن لم نقل أفضلها والتى كتبها الروائى الشهير والعبقرى الإيرانى محمود دولت آبادى «فيصوّر فيها أحداث بعض قرى خراسان فى فترة ١٩٤٥-١٩٤٧ش.» (امير حسين چهلتن- فريدون فرياد، ١٣٦٨ش: ١٤٧)

ويعدّ "كليدر" أطول رواية فى تاريخ الأدب الإيرانى، كما يَعتبر صاحبُ الكتاب رائعتَه أكملَ كتاب ألّفه: «رواية "كليدر" من حيث الكمية، والكيفية، وبنية الرواية، واستخدام الشخصيات، والحبكة، واللغة، والمنولوجات، وبيان الأحاسيس والمشاعر الإنسانية فى الشخصيات المختلفة والتعبير عن الأحوال والتصرّفات تعتبر أكمل عمل يمكنى أن أعمله باعتبارى مؤلّفا وروائيا وربّما يمكننى القول إنّ رواية "كليدر" فاقت تصوراتى من بعض الجهات كما لايزال تصيبنى الدهشة قليلا حينما أقرأ بعض مقاطع منها.» (إسحاقيان، ١٣٨٣ش: ١٠١)

المحاور المشتركة بين الروايتين

الأرض وقداستها

تعتبر قضية الأرض من الشواغل الأساسية للرواية العربية فالشرقاوى فى روايته "الأرض" يركّز اهتمامه على الحياة الريفية ويتحدّث عن قداسة الأرض وأهمية العمل بها حيث يعتبرها من الخطوط الحمراء التى لا يمكن المساس بها فهو يرتبط المكانة

والشـأن لأهل القرية بـالأرض حيـث إنّ الذين يمتلكون الأرض يحظـون بالاحترام والمكانة، والذين لايملكونها، لايملكون شـيئا حتى الشـرف: «الـذى لا يملک فی القرية أرضا لا يملک فيها شـيئا على الإطلاق حتى الشرف.» (الشرقاوی، ۱۹۷۰م: ۳۷۸) إنّ الشـرقاوی حصر مفهوم الكرامة والإحساس بالشـرف فی ملكية الأرض والعمل أمّا هناک نقطة أخرى من المحتّم علينا الإشـارة وإلقاء الضوء عليها وهی أنّ الشرقاوی لا يعطی جلّ اهتمامه بمجرد ملكية الأرض بل يعطی دورا هامّا لعمل صاحب الأرض فی أرضه حيث يجعل العمل عنصرا أساسيا لصاحب ومالک الأرض. فهو يحبذ بعبد الهادی لأنّه يمتلک الأرض ويعمل بنفسه فيها ولا يؤجره للآخرين.

وكذلـک لـلأرض فی "کلیدر" أهمية كبيرة حيث إنّ الذيـن يمتلكون الأرض يحظون بالكرامة والعزة أمّا الذين لا يملكون الأرض فيستغلّون ويهانون بيد الملاک والإقطاعيون، ولكن من الضرورى أن نشـير إلى الملاحظة التی توجـد فی "کلیدر" حول الأرض كما كانت موجودة فی "الأرض" للشرقاوی وهی أنّ مجرّد امتلاک الأرض لا يكفی بل يجب أن يعمـل الرجـل الذى يمتلک الأرض فی أرضه ويأكل من ثمـرة كدّه وعرق جبينه لأنّ الأرض مثل العرض والشـرف، والإنسان لا يعطی شرفه للآخرين؛ قال قدير لنادعلی: «زمين مثل زن آدم است. مرد كه زنش را به ديگرى وا نمى گذارد. مال وحشم هم.»[۱] (دولت آبادی، ۱۳۸۷ش: ۸۲٦)

الدعوة إلى الثورة

يعتقد "سـتار" أنّ الثورة هی أفضل سبيل لتخلّص المجتمع من مشاكله واضطراباته وهذا ما اعتقد به الشرقاوی فی "الأرض" فقال ستار، وهو رمز الثورة فی رواية "کلیدر" لدولت آبادی"،: «فقـط انقلاب! اگر ملتی می خواهد زندگانی كند، بايد بتواند بجنگد. جنگ با دشمنی كه مشـخصا آن را می شناسـد. خودت می گويی ما مردمی هستم با دسـت خالی، پای برهنه وشكم گرسـنه. خوب در اين جنگ انقلاب ما مردم چی از

۱. .إنّ الأرض مثل الزوجة والرجل لايترک زوجته للآخرين وكذلک المال والحشم.

دست می‌دهیم.[١](المصدر نفسه: ١٨٠٥)

يبدو أنّ صاحب "كليدر" أخذ هذا المضمون من كتاب "الخبز والخمر" لسيلونه حينما قال "دون بائولو لـ "كريستينا" «في مجتمع كمجتمعنا ليست الحياة المعنوية إلّا الحياة الثورية.» (سيلونه، ١٣٥٣ش: ٣٩١)

وكذلك نلاحظ هذا المفهوم من الثورة في رواية "الأرض" لأنّ الشرقاوى لا يعتقد بالتصالح ذاهبا إلى السبيل الوحيد لاستقرار العدل والمساواة ألا وهى الثورة للإطاحة بحكومة صدقى وأعوانه.

إنّ الشرقاوى في رواياته كاتب اشتراكى تقدّمى ينتصر للكادحين ولا يرى إمكان التفاعل أو التصالح بين الجانى والضحية ويرى أنّ العمل الجماعى هو صيغة الحياة وضمان التقدّم وحماية المكاسب. هذا ما تقوله مضامين رواياته وما يرتفع كشعارات محدّدة في روايته الأخيرة بصفة خاصّة. فهو وجّه نقدا لاذعا لرواية "زينب" التى كتبها محمد حسين هيكل عام ١٩١١م (عبدالله، ١٩٨٩م: ٩٥) ويقول: «على أنّ قرية زينب لم تعرف طعم الكرابيج كما عرفت قريتى ولم تذق قرية زينب اضطراب مواعيد الرى ولم تجرّب بول الخيل يصبّ في الأفواه ولم تصرف قرية زينب زهو النصر، وهى تتحدّى القضاء، والإنجليز، والعمدة، والحكومة وتنتصر لبعض الوقت وزينب التى لم تكن أبدا على الرغم من كلّ شى جميلة كوصيفة لم تذهب إلى قاعة الطحين ذات يوم لتعود إلى أمّها باكية كما صنعت الوصيف.» (الشرقاوى، ١٩٧٠م: ٣٤٤-٣٤٥)

كما ذكر سابقا إنّ الشرقاوى كاتب اشتراكى تقدّمى يعتقد بالصراع مع الاستعمار والإقطاع صراعا ساخنا مباشرا، فهو يحبّ عبدالهادى حبّا جمّا ويجعله بطلا في هذه الرواية لأنّ عبدالهادى لايخيب ولاييأس من الثورة ضد الإقطاع والظلم لحظة فهو شخصية ثورية يعلن الحرب ضدّ كل من يضطهد القرية ولو كانت الحكومة أو الإنجليز أو أى شخص من داخل أو خارج القرية: «عرف أنّ كلّ شيء مصيره يتعدّل مادامت

١. الثورة، الثورة ولاشيء. إذا كان الشعب يريد أن يعيش يجب أن يقدرعلى المحاربة. المحاربة مع العدوالذى يعرفه جيدا. أنت تقول نحن شعب حفاة عراة جياع مكتوف الأيدى. طيب إذن نحن باعتبارنا شعبا ماذا نفقد إذا نحارب؟

مصر ترفض أن تستعبد.» (الشرقاوى، ١٩٧٠م: ٢٤١) أمّا هذا الكاتب المصرى يشنّ هجوما لاذعا إلى الشيخ يوسف ويستهزئ به لأنّه مال إلى الثورة والمقاومة فى البداية أمّا لم يلبث طويلا حتى استسلم ورفع الراية البيضاء خاضعا أمام الاستبداد والظلم.

نهاية الروايتين مفتوحة

إنّ الرؤية الواقعية هى رؤية متشائمة ومتأزّمة حيث إنّ الخير ليس فائزا فى نهاية الرواية، بل نرى فى أغلب هذه الروايات أنّ الشرّ يهزم الخير ويسيطر على المجتمع وهذا ما نراه فى روايتى "الأرض" للشرقاوى و"كليدر" لدولت آبادى حيث إنّ الأمر قد انتهى فى "الأرض" إلى ضياع جهود الفلاحين اذ عبّد الطريق، وعلى الفلاحين أن يتكيفوا مع الواقع الجديد كما أنه لم يتمّ الإفراج عن زعماء القرية فى دوار العمدة وهذا يصدق على رواية "كليدر" لدولت آبادى إذ انتهى الأمر إلى قتل "گل محمد" وأعوانه إلّا "خان محمد" الذى يهرب ويحمل بوارق الأمل.

سيطرة الواقعية

يمكننا القول إنّ الالتزام الدقيق بأحداث التاريخ الحقيقية وشخصياته وأمكنته وزمانه يشير إلى لون من ألوان الرواية التاريخية ذى معيار محدّد هو الالتزام والأمانة والدقّة فى التعامل مع المادة التاريخية ولا يكتمل هذا المعيار دون أن نلاحظ أثره فى فنية الرواية وهو أثر سلبى غالبا لأنّ التغليب الحقيقى سيضيق الخناق على المتخيل فلا يترك له فرصة ابتداع الأحداث والأزمنة، والأمكنة، والشخصيات الرئيسية وإذا استلّت هذا العناصر الفنية من التخييل فلن يبقى غير الهيكل العام للرواية. (روحى، ٢٠٠٣م: ٦٨)

فبما أنّ كلتا روايتى "الأرض" و"كليدر" تشير إلى حدث تاريخى معين فمن الطبيعى أن يغلب الجانب الواقعى على التخيلى لأنّه كلّما ارتفعت نسبة المادة التاريخية اضطرّ الروائىّ إلى التقيد بالأحداث الحقيقية، والشخصيات، والأمكنة، والأزمنة وهذا يؤدّى إلى ضعف قدرته التخيلية الروائية، خاصّة فى رواية "الأرض" للشرقاوى ولكن فى رواية "كليدر" نلاحظ تجلّى الخيال أكثر من "الأرض" لأنّ هناك شخصيات خيالية مثل

"بلقيس" و"شيرو" يبدعها دولت آبادى وليس لها أثر فى الواقع.

مسرح الأحداث

إنّ أحداث كلتا الروايتين تحدث فى الريف إلّا أنّ فى "كليدر" لايزال يعيش الناس فى المجتمع الريفى الطبقى والمتخلّف حيث إنّ كبار الملاك وصغارهم فى رأس الهرم يظلمون الناس دون أن يحاسبوا أنفسهم أو يحاسبهم أحد، فالحكومة لا تلعب دورا بارزا بل الدور الرئيس يعود إلى الملاك الذين يقنّنون وينفّذون على أساس منفعتهم الشخصية، وبعبارة أخرى إنّ الحكومة لا تتدخّل فى شؤون الناس إلّا فى مواقع خاصّة مثل الصراعات الطائفية، أو طغيان ونهضة تهدّد مصالح الحكومة والملّاك، أو أخذ الضرائب، فالثروات الطائلة للملّاك والقدرة التى يحظون بها بسبب دعم الحكومة توفّران لهم كل شيء فى رواية "كليدر" حتى يمكّنهم أن يخترقوا حقّ الرعايا وينتهكوا عرضهم فهذا هو عين الأرباب "آلاجاقى" على "شيرو" حيث يطلب من "بندار" أن يسمح لها لكى تعمل فى بيته حتى يستطيع أن يستمتع بها، ولكن فى رواية "الأرض" للشرقاوى إنّ المجتمع الريفى تقدّم خطوة حيث إنّ كلّ أهل القرية يقفون أمام مظالم الحكومة ولا يستسلمون وإن اعتقلوا واحتقروا بيد رجال السلطة. وبكلام آخر، فى رواية "الأرض"، أهل القرية كلهم يقاومون أمام الحكومة طالبين استقرار المساواة، والحرية، والتوزيع العادل للثروات إلّا العمدة والشيخ الشناوى، وهما من عملاء الحكومة، سواء من كان يملك الأرض أو لا يملك، ولكن فى "كليدر" لاتزال القرية لم تتخلّص من عقدة الملاك والتمييز الطبقى.

الصراع

تقوم كلتا الروايتين على أساس الصراع، غير أنّ فى "كليدر" يبدأ الصراع بإصرار الحكومة من أخذ الضرائب من "گل محمد" وامتناعه من تسديد الضرائب ولكن فى رواية "الأرض" للشرقاوى يبدأ الصراع من تقسيط مياه الرى من عشرة أيام إلى خمسة، فلذلك يمكننا القول إنّ الصراع فى "كليدر" فردىّ ولكن فى "الأرض" جماعىّ حيث إنّ

كلّ أهــل القرية يدخل فيه؛ بعبارة أخــرى أنّ "گل محمد" فى "كليدر" يدخل فى الصراع والحــرب مع الحكومة بقتله مأمورى جابى الضرائب ثم يتّســع نطاق الصراع ولكن فى "الأرض" يدخل كلّ أهل القرية فى الصراع من البداية حتى النهاية، لأنّ الحكومة قامت بتقليل مدة الريّ من عشرة أيام إلى خمسة وهذا ما يعارضه كل أهل القرية.

اللغة

تحظــى لغة الراوى فى الرواية وما يجرى الكاتب على ألســنة شــخصيات الرواية، بأهميــة بالغة فى مجال الــكلام عن التقنيات الجمالية للرواية. حيــث إنّ الروايات التى تتحدّث عن الريف خاصّة فى اللغة العربية تختلف عن اللغة المحكية للشــخصيات وعلى سبيل المثال لا يستخدم الكاتب للفلاح لغة أدبية فخمة، بل إنّ الفلاح يتحدّث بعبارات بســيطة وعامية غيرمعقّدة، ولكن الشــخصيات المثقّفة والآكاديميــة التى تدخل فى هذه الروايــات تســتخدم لغة أدبية فاخرة وفصيحة غالبا وهذا مــا نراه فى رواية "الأرض" حيث إنّ عبدالرحمان الشرقاوى يلتزم بهذا الأصل جيدا فهو يستخدم على سبيل المثال لشــخصية "علوانى" ،وهو من البدو النازحين ويرعى غنم أبيه، لغة عامية بدوية يذكّرنا باللهجة البدوية التى تســتخدمها أهل الوبر وســكان البوادى لأنّه شــخصية غير مثقّفة وليس له أى اطّلاع بالعلم الحديث ولم يعش إلّا فى القرية: «يا مراحب يا زين الفتيان.. مراحب بالجدعان..اتفضل شــاى..ريح هنا يا زين العرب والله شــرفتنا.» (الشرقاوى، ١٩٧٠م: ٥٠) ولكــن لمحمد أفندى باعتباره مدرّســا فى القرية لغة فاخرة فهو فى عريضة كتبها إلى الحكومة نيابة عن أهل القرية يقلّد أســلوب المنفلوطى ذاكراً إياه: «خلاص، بقى حاكتب أنا العريضة حاأكتبها مقنعة تجمع بين الرجاء الهادئ والاســتنكار الصارخ. حاكتبها بأســلوب المنفلوطى. وأخذ محمد أفندى يقول إنه كتب العريضة وأنّه من فرط الفصاحة قال: إنّ الفلاحين اذ قطعت منهم خمســة أيام ريّ سيفرشون الغبراء ويلتحفون الســماء.» (المصدر نفســه: ٧٢-٨٠) فهذه الجملة يذكّرنا بالجمــلات البليغة والملحمية للمنفلوطى.

والوضع يختلف بالنسبة إلى دولت آبادى، حيث إنّ هذا الكاتب الإيرانى فى روايته

"كليدر" لا يلتزم بهذه الحدود والثغور بل يجتازها فهو يستخدم للشخصيات العشائرية لغة بسيطة وغير معقّدة أحيانا ولكن في بعض الأحيان يتدخّل نفسُه باعتباره الراوى العالم بكل شيء في مسار الرواية ويتحدّث بدلا من الشخصيات بلغة أدبية فصيحة وبعبارات فلسفية بعيدة عن شخصيات ريفية وهذا ربما يقلّل من قيمة هذه الرواية. فعلى سبيل المثال وليس الحصر أنّ "نادعلى" وهو لم يدرّس ولم يقرأ إلّا عند "بى‌بى" في القرية نراه يتحدّث بلغة أدبية وفلسفية تستغربنا وتثير دهشتنا: «نیست هیچ نیست! چیست این که هیچ می نماید؟! توکیستی و بود و نبودت را چه فرقی است؟ و.... اگرت هست آیا بیش از فرق بود یا نبود موریانه‌ای است در انبوه قافله مورچگان، کورانه روان سوی هر سوی؟ وجود...وجود....! همه چیز در نظرم چرخ می‌زند، همه چیز می‌چرخد! به جز صدای سم اسب، محو شدن، نیستی، هر چه که می‌جنبد مرگش را می بینم.»١ (دولت آبادی، ١٣٨٧ش: ٢٣٥٨-٢٣٥٩)

وجهة النظر (التبئير)

تزخر رواية "كليدر" على عكس رواية "الأرض" بالتحليلات النفسانية الدقيقة والعميقة عن الشخصيات. إنّ الشرقاوى يختار التبئيرين لروايته "الأرض"، الأوّل هو التبئير الداخلى، والثانى هو التبئير في درجة الصفر أو اللاتبئير فهو يبدأ روايته بضمير المتكلم «أنا أعرف قريتى تماما.» ثم نرى أنّ الراوى يغيب عن الرواية في صفحة ٤٠ ولا يظهر إلّا في صفحة ٣١٣.

يختار الروائيُّ اللاتبئيَر لأنّه يعى جيدا أنّ إضفاء الحياة على الشخصية الروائية يحتاج إلى رصد سلوكها الخارجية وأفكارها وأحاسيسها الداخلية وردود أفعالها على الحوادث الخارجية ولكنّه يجد نفسه عاجزة عن التعبير عن دخيلة الشخصية بوساطة

١. ليس. لاشيء! ما هذا الذى يتجلّى كأنّه لاشيء. من أنت وماذا تفعل في هذا الغموض بلا انتهاء؟ من آنت وما هو الفرق بين وجودک وعدمک؟ إذا كان هناک فرق، فهل أكثر من الفرق بين وجود نملة في كتلة النمال وعدم وجودها والتى تتّجه عشوائيا إلى كل نحو وطرف؟ الوجود..الوجود.. كل شيء يدور في عينى، كل شيء يدور إلا صوت حافرة الفرس، صوت التلاشى... الاختفاء والعدم، إنى أرى الموت في كل شيء يتحرّک.

الحوادث فیلجأ إلی الراوی العالم بکل شیء لیقدّم بوساطته العبارات التی تنمّ عن هذه الدخیلة کفکّر، وتمنّی، ورغب وفرح. (روحی، ۲۰۰۳م: ۱۵)

إذن اختار الشرقاویُّ اللاتبئیرَ أو راویا عالما بکل شیء ولذلک لا یقوم بالتحلیلات النفسانیة الدقیقة عن شخصیاته، أمّا محمود دولت آبادی فهو یختار مثل الشرقاوی اللاتبئیر أو راویا عالما بکل شیء ولکن هذا لیس بسبب عجزه عن التعبیر عن دخیلة شخصیاته مثل الشرقاوی والدلیل علی هذا، الأوصاف النفسانیة الکثیرة التی کانت الروایة تزخر بها حیث القارئ یدرک أنّ الکاتب یصف دخیلة شخصیاته أفضل بکثیر من أنفسهم: «در تیر نای عمق قهوه خانه، چشم‌های عباسجان ول ول می زدند و لب پاینش یک تکه نمد کبود فرو افتاده مینمود. گل محمد، قدم به درون قهوه خانه گذاشت و راست به طرف عباسجان رفت. عباسجان، لال شده میمانست و سخنی هم به چاپلوسی اگر میخواست بر زبان بیاورد، نمیتوانست. پس در عین خندهای بی مزه و قبا سوخته، چشمانش را چون دو سکه بی‌ارزش، ناپایدار و حقیر به گل محمد دوخته و چنان از خود رفته مینمود که جمع و جور کردن لب پایینیش را از یاد برده بود.»[1] (دولت آبادی، ۱۳۸۷ش: ۲٤۲۲)

ومن أجمل هذه الأوصاف النفسانیة هی وصف مشاعر زیور: «جان من فدای تو، مرد. بیا، بیا. مثل مادری تو را به زیر بالهای خود جای می دهم. پهنای جان من قدمگاه تو است. چشمانم خاک راه تو. برآن پای بنه. بر من پای بنه. سم بر بیابان جان من بکوب. برمن بتاز. تازیانهام بزن. گیسویم تنگ اسب تو باد. جانم را به تو میبخشم. به جای من ببین، دم بزن. نفس من از آن تو. زیور بلاگردان. این همه تو را و تو مرا. اما از من مپرهیز. مگریز. من یخ می‌کنم. سنگ میشوم. گل محمد.»[2] (المصدر نفسه: ۱۲٤)

---

۱. فی جوف المقهی کانت عینا "عباسجان" تبصبصان وشفته السفلی تبدو مثل قطعة لباد أزرق تهدلّت. وضع "گل محمد" قدما داخلا لمقهی وذهب رأسا إلی جهة "عباسجان". کان "عباسجان" یبدو کالأخرس وحتی إن أراد أن یقول شیئا تملّقا فهو لم یکن یستطیع. إذن ففی الوقت نفسه الذی سمّر فیه عینیه الشبیهتین بمسکوکتین عدیمتی القیمة غیرثابتتین وحقیریتین ضاحکا ضحکة عدیمة الطعم باهتة علی "گل محمد" ونسی نفسه بحیث أنه نسی أن یلملم شفته السفلی.

۲. روحی فداک یا رجل. تعال، مثل أم سأفسح لک تحت جناحیّ. اتساع روحی موطئ قدمیک. عینای تراب طریقک. دس علیّ. دق حافرک علی صحراء روحی. اجر سریعا علیّ. اِضربنی بالسوط

أمّـا النقطة الثانية هى أنّ "كليدر" تدعو إلى التخلّص من التحزّب والأيدولوجية فى الوقت الذى أنّ "الأرض" تدعو إلى التمسّـک بالتحزّب والأيدولوجية. يعتبر "سـتار" فى "كليـدر"، رمز الأيدولوجية والتحزّب فهو ينتمى إلى حـزب "توده" ولكنّه يميل عن جلسـات الحزب بعد تعرّفـه على "گل محمد" وأفكاره ويقرّر أن يضحّى بنفسـه لـ"گل محمد" والشـعب، وحينما سـأل "گل محمد"، "ستار" لماذا ترک جلسات الحزب وعرض نفسـه للخطر بالتحاقه به ورهطه أجاب "سـتار" قائلا: «تو خود از زبان من گفتى. من از آن قبيلهاى كه تو ميگويى بريدم وروبه تو آمدم. از آنكه ميخواهم آبروى عشق را حراست كرده باشم. فقط همين.»[١] (المصدر نفسه: ٢٩٧١)

فدولـت آبادى يبـين فى "كليدر" أنّه يعـارض الانتماء لحزب معين على حسـاب الآخريـن. وبكلام آخر، إنّه يخالف فكـرة التحزّب والأيدولوجية لأنّ كلّ شـىء فيها جامد ورتيب ويقوم على أساس إجابات مسبقة، حيث إنّه يتمّ قياس كلّ شىء بقياسات معينة وكلّ ما يخرج عنها تافه يجب إدانته وطرده، ولكن فى العشق تلعب التضحية دورا رئيسا ومحوريا فلا يفكّر الشخص فى اتهام الآخرين وإلقاء اللوم عليهم بسبب أفكارهم بل يريد أن يحبّ الآخرين ويخدمهم وهذا ما نراه فى شـخصية "سـتار" و"گل محمد" فى "كليدر".

صحيح أنّ "گل محمد" بقتله المأمورين يُدخِل نفسه فى الصراع والحرب مع الحكومة، ولكـن قلّما نجـد الكاتب فى هذه الرواية المطوّلة أن ينتقـد الحكومة وحتى أنّنا لا نرى اسـم حكومة خاصّة فى "كليدر" على خلاف "الأرض" للشـرقاوى، بل يسعى صاحب "كليدر" أن يشير إلى التمييز الطبقى ومظالم الملاک الصغار والكبار للرعايا وحياة الطبقة الكادحة وحياة الطبقات الفقيرة المعذّبة المسحوقة إلى الطبقات الثرية والمسيطرة، وهذا إن دلّ على شـىء فإنّما يدلّ على أنّ رواية "كليدر" لم تكتب على أسـاس أفكار حزبية بل كتبت لكى تعبّر عن مشاكل المجتمع الريفى بنظرة واقعية.

لتكـن ضفائرى زمـام حصانک. أهديک روحى. أُنظر نيابة عنى. تنفّس. أنفاسـى ملكک. زيور دافع البلاء عنک ولاتمنع علىّ، لاتهرب.إننى أثلج أستحيل صخرا يا "گل محمد".

١. أنت أجبت من لسانى، أنا انفصلت من هذا الحزب الذى تحدّثت عنه وملت إليک لأنى كنت أريد محافظة كرامة الحبّ ولاشىء.

ولكــن إنّ روايــة "الأرض" هى رواية سياســية أيدولوجية علــى خلاف روايات واقعية والتى تعبّر عما يحدث فى الواقع وعما يواجهه الناس. فبعبارة أخرى، اســتخدم الشــرقاوى هذه الرواية لكى ينتقد حكومة صدقى باشــا ويختار الحكومة الماركســية كبديل لها فهو يشــنّ هجوما لاذعا على الحكومة بســبب فقر وجوع الناس، فى الوقت الذى تبعث الحكومة نقطة البوليس والعســاكر إلــى القرية لكى تمنع الفلاحين الجائعين عــن نتيجة عملهم وتعبهم: «دا الناس من الجوع قربت تاكل بعض! والحكومة شــاطرة تبعث لنا هجانة تدخلنا الدور من قبل آذان المغرب! قال الحكومة بعتا لنا عساكر؟ طب تبعت لنا درة! وهوه يعنى الضرب دا حايشبع الناس على رأى الشاويش عبدالله؟ آه يا حكومة يا حكومة بلا معنى.» (الشرقاوى، ١٩٧٠م: ٣١٩) نلاحظ أنّ الشرقاوى يسمّى حكومة حزب الشعب بحكومة بلا معنى لأنّها لا تفكّر فى تحسين ظروف المجتمع ورفاهية الطبقة الكادحة فهو ينتقد حكومة صدقى لأنّها لا تهتمّ بالفلاحين والطبقة الكادحة التى هى تحمل على عاتقها مســؤولية الإنتاج الكبيرة ولذلك يعتقد الشرقاوى أنّ مصر هى بلد الفلاحين: «هيه البلد دى بتاعتكم؟ أنتم فاهمين إيه؟ هيه بلد مين؟ دى بلدنا كلنا: بلد الفلاحين دول أولا! كفايه بقى شغل قطاع الطرق ده.» (المصدر نفسه: ٣٠٣)

النتيجة

أما النتائج المهمة التى توصل الباحثان إليها أثناء دراستهما، فهى:

١- تصوّر الرواية الواقعيةُ الفلاحَ بريئا فقيرا مستغَلّا، والإقطاعى ظالما مستغِلّا ولعلّ تصويــر جرائم الإقطــاع ومعركة الفلاحين لنيل حقوقهم مــن الإقطاعيين هو الموضوع الأول فى الرواية الريفية فى مصر وإيران.

٢- إن أدب الريــف، على الأغلب، يقوم على الصــراع، ولكنّ الصراع فى "كليدر" فــردى قائم على مجهود شــخصىّ ولكنه فى "الأرض" جماعىّ، وهــذا ينبعث من انتماء الشرقاوى الحزبى الاشتراكى الداعى إلى تعبئة الشعب والنضال الجماعى.

٣- نهايــة الروايتــين مفتوحة والخير ليس فائزا فى نهايتهما كما هو الحال فى أغلب الروايات، بل إنّ الشــرّ يهزم الخير ويسيطر على المجتمع، وهذه الميزة تجعلهما فى نطاق

الروايات الجديدة.

٤- يدخل دولت آبادى فى رواية كليدر فى لغة الشخوص الطبيعية والمعروفة، ولا يلتزم بالحدود والثغور فى هذا المجال، حيث يتدخّل باعتباره الراوى العالم بكل شىء فى مسار الرواية ويتحدّث بدلا من شخصيات بلغة أدبية فصيحة وعبارات فلسفية بعيدة عن شخصيات ريفية ولكن عبدالرحمان الشرقاوى يلتزم بهذا الأصل ولا يتدخّل فى لغة الشخوص.

٥- تجرى أحداث رواية "الأرض" على أساس مبادئ المذهب الاشتراكى وتدعو أحيانا إلى التمسّک بالتحزّب والشرقاوى ألّف هذه الرواية بدوافع أيدولوجية حزبية، ولكنّ رواية "كليدر" بعيدة عن هذه الأجواء وغير محاطة بهذه الأطر الضيقّة.

المصادر والمراجع

إسحاقيان، جواد. (١٣٨٣ش). كليدر رمان عشق وحماسه. تهران: نشرگل آذين.

بشيرى، محمود. (١٣٩٠ش). "نفرين زمين" و سهم جلال آل احمد در داستان نويسى اقليمى و روستايى معاصر ايران. المطبوع فى كتاب جلال پژوهى (مجموعه مقالات درباره جلال آل احمد). تهران: انتشارات خانه كتاب.

چهلتن، امير حسين و فرياد فريدون. (١٣٦٨ش). ما نيز مردمى هستيم. تهران: نشر پارسى.

حبيبى، محسن. (١٣٨٩ ش). قصه شهر؛ تهران، نماد شهر نوپرداز ايرانى (با تاكيد بر دوره ١٢٩٩-١٣٣٢ش). تهران: مؤسسه انتشارات دانشگاه تهران.

خفاجى، عبد المنعم. (١٩٨٩م). الأدب العربى الحديث. الجزء الرابع. القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية.

دولت آبادى، محمود. (١٣٨٧ش). كليدر. تهران: فرهنگ معاصر.

روحى الفيصل، سمر. (٢٠٠٣م). الرواية العربية البناء والرؤيا. دمشق: اتحاد كتاب العرب.

سيلونه، ايناتسا. (١٣٥٣ش). نان و شراب. ترجمه محمد قاضى. تهران: انتشارات اميركبير.

الشرقاوى، عبدالرحمن. (١٩٧٠م). الأرض. القاهرة: دار الكتاب العربى للطباعة.

الشطى، سليمان. (١٩٧٤م). الرمز والرمزية فى أدب نجيب محفوظ. رسالة جامعية فى الماجستير. الكويت: جامعة كويت.

شيرى، قهرمان. (١٣٨٦ش). مكتب‌هاى داستان‌نويسى در ايران. تهران: نشر چشمه.

عبدالله، محمد حسن. (١٩٨٩م). الريف فى الرواية العربية. الكويت: عالم المعرفة.

عطية، أحمد محمد. (١٩٨١م). أدب البحر. مصر: دار المعارف.

کمال، محمـد علی. (۱۹۹۰م). عبد الرحمن الشـرقاوی الفلاح الثائر. القاهـرة: الهیئة المصریة العامة للکتاب.
وادی، طه. (۱۹۹٦م). هیکل رائد الروایة. السیرة والتراث: دار النشر للجامعات.
یالوم، اروین. (۱۳۹۱ش). وقتی نیچه گریست. ترجمه سپیده حبیب. تهران: نشر قطره.